وسخطاً لم يثرهما افراط السلاطين من بني عثمان في منح الامتيازات للاجانب الآخرين. ان توالي اصدار الاوامر والقوانين التي اشرنا اليها، وكذلك موقف السلطان عبدالحميد من محاولات هرتسل وعروضه، يظهران ان السياسة العثمانية لم تقبل المساهمة في تحقيق المطالب الصهيونية في فلسطين، بل تصدت لها، وبهذا اتفقت السياسة العثمانية مع مصالح ومشاعر السكان العرب. وكان رفض المشروع الصهيوني، اذاً، هو العنوان العام للسياسة التي اتبعتها الدولة العثمانية. اما في التطبيق، فما كان اسهل التحايل على اوامر الدولة العلية وقوانينها، خصوصاً في تلك الفترة من عمرها حين كان الفساد قد نخر أجهزتها نخراً غير رفيق، وادى الى شيوع الرشوة على اوسع نطاق في اجهزة الدولة.

وما من متحدث عن تاريخ تلك الفترة، بمن في ذلك الصهيونيون انفسهم، بل خصوصاً هؤلاء، الا ذكر امثلة عن طرق التحايل التي جعلت من السهل اختراق اجراءات حظر الاقامة او حظر التملك، بصورة أو باخرى[٢٩]. لكن الاختراقات، في ظل صلابة الموقف العثماني الرسمي، وتماسكه واستمراره، لم تؤد الى تبديل حقائق الموقف على ارض فلسطين تبديلاً جوهرياً؛ اذ بغياب التأييد العثماني وبوجود الحذر الشعبي، افتقدت الصهيونية ذلك الحليف الذي تحتاجه على الارض ليمكنها من بناء دعائم الكيان اللازمة لانشاء «الوطن القومي». ولعل في هذا شيئاً مما يفسر أمرين يلفتان النظر في ظروف تلك الفترة: أولهما، ان الذين تنبهوا من السكان لمخاطر الوجود اليهودي الوافد تحت رايات الصهيونية علقوا آمالهم، في مقاومته، على موقف الدولة واجراءاتها، واذا استثنينا وقائع متفرقة، هنا وهناك، فان جل مطالب السكان ضد الصهيونية وجهت الى سلطات الدولة، وهذه ظاهرة لا تلغيها محاولات الذين يبحثون، على ما يبدو، عن اسباب جديدة لتمجيد الشعب الفلسطيني الذي لا تنقصه الامجاد، حين يشتطون في تفسير وقائع الاحتكاكات المحلية الأولى التي وقعت بين المستوطنين وجيرانهم العرب فيحملونها سمة المقاومة الشعبية العنيفة للاستيطان، او سمة النضال الوطني ضد الصهيونية؛ وثانيهما ان الاتجاه الغالب في الحركة الصهيونية، كما عبرت عنه مقررات مؤتمر بازل والذي مثله هرتسل في زعامة الحركة، رهن آماله بالحصول على موافقة الدولة العثمانية. وحين فشلت اتصالاته مع الباب العالي في تحقيق هذا الغرض، وجّه جهده إلى تجنيد ضغوط دولية على الباب العالي كي يزعزع معارضته للمشروع الصهيوني. اما حين فشل ذلك كله، فقد راح اليأس يدب في نفوس الصهيونيين، بل ان اصواتاً ليست قليلة الاهمية في الحركة عادت الى المناداة بالكف عن محاولة استيطان فلسطين وبالبحث عن مكان آخر، وخصوصاً ان الفشل في هذا الميدان ترافق مع فشل التجارب الاولى للاستيطان، أو تعثرها. والى هذه الفترة تعود المحاولات التي تمت لدراسة امكانية استيطان اليهود لسيناء المصرية، وهي المحاولات التي توقفت بسبب رفض الحكومة المصرية[٣٠]. كما تعود لهذه الفترة، ايضاً، اتصالات هرتسل بالبرتغاليين لتوطين اليهود في مستعمرتهم الافريقية موزمبيق[٣١]، وغيرها، وغيرها من المحاولات.

اصداء ضئيلة على الجانب العربي

على ارض فلسطين، كانت منجزات الاستيطان اليهودي تجلت، كما ذكر دافيد بن ـ غوريون، حتى انعقاد مؤتمر بازل العام ١٨٩٧، بوجود ٤٣٥٠ يهودياً في ١٩ مستوطنة